

تصدير الكتاب

بقلم المؤرخ الجليل الدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية رسالة ممتعة ممتازة عن "الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره"، كشفت عن كثير من نواحي التاريخ الإسلامى بوجه عام وعن تاريخ مصر فى عصر المماليك بوجه خاص، وحققت رغبة كانت تتوق إليها نفوس الكثيرين من رجال العلم والأدب فى مصر. قد كان من المؤلم أن تظل نواح كثيرة من تاريخنا المصرى الحافل بأسباب العظمة والمجد مجهولة لكثير من المصريين والشرقيين، مع أن فى كشفها كشفا عن صحيفة مشرفة لمصر والشرق الإسلامى كله. ولا ريب أن المؤرخين إذا حذوا حذو الأستاذ محمد جمال الدين سرور ونقبوا عن هذه الكنوز المدفونة فى بطون الكتب القديمة، فقد أسدوا إلى أمتهم وبلادهم أجل الخدمات وأسمائها.

ولقد عنى المؤلف فى هذه الرسالة بمبحث مسائل لم يسبقه إليها أحد من المؤرخين، من حيث استقصاء المعلومات التاريخية وتنظيمها بأسلوب جذاب وعبارة طلية وطريقة تحليلية دقيقة. والمطلع عليها يرى أنه قد عاجل فيها نواحي جدية حقا بالبحث لاتصالها بتاريخنا القومى وحضارتنا فى عصر من أزهى العصور فى التاريخ المصرى الإسلامى، كظهور المماليك فى مصر، والعوامل التى أدت إلى انتقال الحكم من أيدي الأيوبيين إلى المماليك، وكيف ظهر بيبرس على مسرح السياسة المصرية بقوة دهائه وحسن سياسته وبعد نظره وثاقب فكره، وكيف أحيى الخلافة الإسلامية فى مصر بعد أن قضى عليها التتار فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)، فأصبحت مصر بفضلها مقر الخليفة العباسى وقلب الإسلام النابض، وعاد إليها

مجدها الدارس وعندها التالد منذ أيام الفاطميين الذين اتخذوا القاهرة حاضرة لخلافتهم ، والذين امتد سلطانهم على البلاد الاسلامية التي بين المحيط الأطلسي غربا وبلاد العراق شرقا وبين آسيا الصغرى شمالا وبلاد النوبة جنوبا ؛ كما أبان أيضا كيف وقفت مصر في وجه الحملات الصليبية موقف البطولة والهمة حتى دقت معاقل الصليبيين في بلاد الشام معقلا تلو معقل رغم ما كان يتتبع عليهم من نجات أوربا المسيحية ، وكيف استطاع بيبرس أن يستولى على إمارة أنطاكية ومهد بذلك السبيل للقضاء على بقاياهم في عهد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٢ م .

وقد حلل الأستاذ جمال الأسباب التي أدت الى فشل هؤلاء الصليبيين في غزواتهم ، كما بين لنا كيف وقف بيبرس في وجه المغول الطامعين في مصر ، وكيف قضى على قوتهم في الشام وحال بينهم وبين ما يشتهون ، بعد أن اجتاحوا الخلافة من بغداد وثلوا عروش الممالك التي نازلوها في الشرق والغرب حتى أصبحت أثرا بعد عين .

ولم يكتف المؤلف بسرد هذه الحوادث وتحليلها ، بل أبان لنا بجلاء ووضوح كيف كانت مصر في علاقتها بالتتار يتنازعها عاملان عظيمان : العامل الأول عامل ديني نشأ عن اعتناق بركة خان وكثير من أتباعه ببلاد القفجاق الدين الاسلامي وأيدته المصاهرة التي تمت بزواج ابنة هذا السلطان من الظاهر بيبرس ، والعامل الثاني عامل عدائي يرجع الى المحالفة التي عقدت بين هولاكو سلطان المغول في فارس وجماعة الصليبيين الذين كانوا يناصبون مصر العدا .

وقد ألم الأستاذ جمال الإمامة عامة بعلاقات مصر الخارجية في عصر الظاهر بيبرس مع أمم الغرب وبخاصة مع أمبراطور الدولة البيزنطية ، وكيف استحسنت عرى المودة بين الامبراطوريتين المصرية والبيزنطية ، وكيف تبادلنا الرسل والهدايا ، وكيف توثقت العرى بين مصر وملكى صقلية وأرجونة (Aragon) وأمير إشبيلية ، وكيف أفادت مصر سياسيا وتجاريا من وراء هذه المحالفات . كما لم يفت المؤلف أن

يبين لنا كيف اتسع نفوذ مصر بين الأمم المجاورة لها والتي تلبط بها بأواصر قوية من الدين واللغة والتقاليد بجلاد النوبة والحجاز .

وإننى لأتوه هنا بمزيد الغبطة والاعجاب بما كتبه المؤلف عن الحضارة المصرية فى عصر الظاهر بيبرس . فقد أعطى لنا صورة واضحة جلية لا تدع مجالاً للشك فى أن هذا العصر كان من أزهى العصور الإسلامية قاطبة ، فأعاد الى الأذهان عصر الرشيد والمأمون وعصر المعز لدين الله الفاطمى وابنه العزيز فى النظام السياسى والادارى والقضائى والحربى ، وفى العناية بالزراعة والصناعة والتجارة ، وفى ازدهار رياض العلم والأدب ، والرقى الاجتماعى .

ولا غرو فقد بحث المؤلف نظام الحكم فى ذلك العصر ، وكيف عمل بيبرس على حصر وراثته العرش فى أسرته بعد أن كان غنيمة لكل قوى يستطيع التغلب عليه ، مما كان يدعو الى التطاحن والتنافس بين الأمراء . وقد كان من الطريف الممتع ما كتبه المؤلف عن نظام البلاط مما هو قريب الشبه بنظام البلاط الملكى فى عصرنا هذا ، كما بين أن السلطان كان يستعين فى إدارة شئون الدولة بولاة الأقاليم الذين كانوا يقومون بجمع الخراج والرسوم الجمركية والاشراف على شئون البلاد .

كذلك بحث الأستاذ محمد جمال الدين سرور نظام البريد فى عصر بيبرس ، وكيف كانت تتبادل الرسائل داخل البلاد المصرية وخارجها بطريق البر والبحر ، وأبان حالة الجيش فى ذلك العهد ، فوضح لنا كيف أعطى بيبرس لجيشه جزءاً كبيراً من عنايته لأنه القوة التى يعتمد عليها ويوطد بها عرشه ، فزاد فى عدده وعدده ، وبنى لمصر أسطولا كان نواة لأسطول قوى فى عهد دولة المماليك بمصر ، كما توه بما كان لبيبرس من جهود موفقة فى سبيل تنمية الثروة المصرية عن طريق الزراعة والصناعة والتجارة ليستعين بذلك على تعبئة الجيوش لصمد الأعداء فى داخل البلاد وخارجها .

ومما يذكر المؤلف بمزيد التقدير والاعجاب ذلك الفصل الممتع الذى كتبه عن الحياة العلمية والأدبية فى ذلك العصر الذى طالما ظن كثير من الناس أنه عصر حروب وتطاحن ، ليس للعلم ولا للأدب فيه حظ . فقد أظهر لنا شخصيات فذة بارزة فى نواحى العلم والأدب والشعر والثقافة العامة ، من أمثال : محيى الدين بن عبد الظاهر مؤلف كتاب " السيرة الظاهرية " ، والقاضى المؤرخ شمس الدين بن خلكان صاحب كتاب " وفيات الأعيان " ، وجمال الدين بن واصل الذى خلف لنا كتابه " مفترج الكروب فى أخبار بنى أيوب " ، والشاعر المبدع شرف الدين البوصيرى صاحب الهمزية والبردة . كذلك تكلم الأستاذ جمال عما خلفه الظاهر بيبرس من آثار عظيمة رغم انشغاله بالحروب والمعارك طيلة أيامه ، كالمدرسة الظاهرية ، والجامع الظاهرى ، وما أدخله من الإصلاحات على الجامع الأزهر .

ولا شك أن المطاع على هذا الكتاب يقف على ما بذله المؤلف من جهد متواصل وبحث عميق وتحليل دقيق واستقصاء للحقائق التاريخية من مصادرها مخطوطة كانت أو مطبوعة ، وهو فى نظرنا جدير كل الجدارة بأن ينال حظه من العناية والتقدير لدى جمهور المؤرخين والمثقفين فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، إذ أنه يتناول بحث عصر يعتبر بحق من مفانح التاريخ الإسلامى .

ولمنا لنأمل فى الأستاذ جمال أن لا يقف جهوده عند هذا الحد ، وأن يجعل عمله هذا بداية لبحوث أخرى يواصلها فى بحث ما غمض من بقية تاريخ الممالك فى مصر . والله تعالى يوفقه ويسدد خطاه ما

مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين
وعلى آله وصحبه أجمعين !

وبعد، فهذا بحث قدمته إلى كلية الآداب، وثلت به وبغيره من الامتحانات
درجة الماجستير في الآداب . وإني الآن أقدمه بين يدي القراء كمجهود ضئيل
ساهمت به في كشف بعض النواحي في تاريخ مصر في عصر المماليك .

وقد حملني على الكتابة فيه شغفي بدراسة تاريخ مصر الإسلامية، ورفع الستار
عن الحقائق التاريخية التي لم تتناولها أيدي الكتاب بالبحث والتحليل . وقد أمعنت
النظر طويلا في الموضوع الذي أكتب فيه رسالتي، فشرح الله صدرى لبحث عصر
الظاهر بيبرس، لأنه العصر الذي تتجلى فيه عظمة مصر بأجلى مظاهرها . ففيه
وقف بيبرس في وجه الصليبيين وصعد غاراتهم، كما ناهض التتار عن مصر حتى ردهم
على أعقابهم فانتقلوا خاسرين، لحفظ وطننا المحبوب من غارات أعدائه، ولأنه
العصر الذي ظهرت فيه الحضارة المصرية بمظهر يعتبر نواة نهضة دولة المماليك التي
قامت عليها نهضتنا الحديثة من قريب أو من بعيد .

وإن أنس لا أنس فضل أستاذي المؤرخ الجليل الأستاذ الدكتور حسن
إبراهيم حسن أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب، الذي غمرني بفضله وأظنني
برعايته وأمدني بإرشاداته، حتى قمت بتأليف هذه الرسالة على الشكل الذي يراها
القراء عليه . فقد ساعدني مساعدة قيمة في تبويب الكتاب وتنسيقه، وأمدني

بكثير من المعلومات في بحثي هذا، وقد كان من العسير على أن أصل إليها، إذ استقاهها لي من مراجع مخطوطة بمكاتب أوروبا، كما أرشدني إلى كثير من المراجع المخطوطة والمطبوعة مما له علاقة بهذا الموضوع، وبذل لي كثيرا من ضروب التشجيع خلال قيامي بإعداد تلك الرسالة، ولا سيما في الوقت الذي كنت ألقى فيه المتاعب في جمع المعلومات المشورة في بطون الكتب المختلفة .

ولا أنكر أنه لولا ماثلته من عنايته وتشجيعه لما قمت بإتمام هذا المؤلف، كما لا أشك في أنني بفضل ماثلته من هذه الثمرة تجددت عندي عزيمة القيام ببحوث أخرى أتم بها تاريخ دولة المسالك في مصر .

وإني لأسدي خالص شكرى وعاطر ثنائى لحضرات المؤرخين الأجلاء :
الأستاذ محمد شفيق غمزال وكيل كلية الآداب ، والأستاذ عيسى الحميد العبادى ،
والدكتور محمد مصطفى زياده على ما أولوني من تشجيع ورعاية وعلى ما قدموه لي من
ارشادات قيمة كان لها أثر كبير في توجيه رسالتى وجهة سديدة .

كذلك أقدم أجزل الشكر لحضرة الأستاذ الشيخ محمد سليمان مدير خريج قسم
التخصص بالأزهر الشريف والمدرس بكلية أصول الدين لتفضله بقراءة الكتاب ،
كما لا يفوتنى أن أتوه شاكرًا بهذه العناية التى بذلها حضرة محمد نديم أفندى ملاحظ
مطبعة دار الكتب المصرية فى طبع هذا الكتاب وتنسيقه .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير بلادنا ونفع أمتنا .

محمد جمال الدين سرور

١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٧
القاهرة فى ١٢ مايو سنة ١٩٣٨

محتويات الكتاب

صفحة	
٣	تصدير الكتاب
٧	مقدمة الكتاب
١٥	بحث في مصادر الكتاب

الباب الأول — نشأة بيبرس

(١) ظهور المماليك في مصر :

٢٥ العناصر الأجنبية في الدولة العباسية — المماليك في عهد الدولتين الطولونية والأخشيدية — الدولة الفاطمية تستخدم الأتراك في جيشها — اعتماد الدولة الأيوبية على الأتراك — استنكار الملك الصالح أيوب من شراء المماليك .

(٢) بيبرس قبيل اتصاله بالملك الصالح أيوب :

٢٨ أصل بيبرس — تضارب روايات المؤرخين في تاريخ ولادته والجهة التي بيع فيها دخوله في حوزة الملك الصالح أيوب .

(٣) بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح أيوب الى أن انتصر على الصليبيين بمصر .

٣٠ تدرج بيبرس في مناصب الدولة — حملة لويس التاسع على مصر — الدور الذي قام به بيبرس في صد هذه الحملة — وفاة الملك الصالح — حالة مصر منذ وفاته الى قدوم تورانشاه اليها — موقعة المنصورة — قدوم تورانشاه الى مصر — موقعة فارسكور — أمر لويس التاسع والافراج عنه — ازدياد نفوذ المماليك — إحلال تورانشاه ممالكة محل ممالك أبيه في المناصب — إضمحار المماليك البحرية السوء لتورانشاه — قتل تورانشاه .

الباب الثاني — حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطتها

(١) انتقال السلطة الى المماليك :

٣٩ تولية شجرة الدر سلطنة مصر — خروج أهل سورية عن طاعتها — اعتزالها الحكم — تولية المعز أيك أتابك العسكر سلطنة مصر — تنصيب أحد أمراء البيت الأيوبي —

رغبة الملك الناصر صاحب دمشق في الاستيلاء على مصر — قدومه إليها وانتهزاه — فضل الماليك في صفة جيوش الناصر عن مصر — الزيادة نفوذهم — انجساد ثورة العرب — المعزايك يتخلص من منافسه أنطاي — هروب بيرس وزعماء الماليك إلى البلاد الشامية — اغراؤهم الملك الناصر بخاربه مصر — عقد الصلح بين المعز والناصر — اغتيال المعزايك — كولية ابنه على — الماليك البحرية يحسنون للقيث الاستيلاء على مصر — قدومهم إلى مصر وهزيمةهم عند الصالحية — انصار قطز على المغيث — تحويل الماليك البحرية إلى الطور — مفادتهم الطور ودعاهم إلى الملك المغيث بالكرك — قدوم بيرس إلى الملك الناصر — كولية فتنار سلطنة مصر .

(٣) ظهور بيرس على مسرح السياسة المصرية :

٤٧

مسير بيرس إلى غزة — مراسلته الملك المظفر قطز بمصر — قدومه إلى مصر — انطلاعه ولاية قلوب — تهديد هولاء كركل مصر — استعداد قطز لصد غارات التار — ذهابه إلى بلاد الشام — فضل بيرس في هزيمة التار عند عين جالوت — طمع بيرس في ولاية حلب — حقد بيرس على قطز — مقتل قطز .

الباب الثالث — سلطنة الظاهر بيبرس

(١) اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها :

٥٥

كولية بيبرس سلطنة مصر — تقيبه بالملك الظاهر — استجلابه وضمي الرعية .

(٢) الثورات الداخلية :

٥٧

منجر أنطاي ينادي بنفسه سلطانا على دمشق — خروج شمس الدين البرلي عن طاعة بيبرس — تحريضه أمراء الشام على الانضمام إليه — هجومه على حلب — استيلاء جيوش بيبرس على حلب — هرب البرلي — اعتلاء الولاء لملك الظاهر — اتفاق الملك المغيث مع التار على الاستيلاء على مصر — اعتقال الملك المغيث .

(٣) إحياء الخلافة العباسية :

٦٢

رغبة بيبرس في إحياء الخلافة بمصر — دعوته للإمام أحمد لتقديم إلى مصر — مبايعته الإمام أحمد العباسي بالخلافة — هويض السلطنة — تعيين الخليفة إلى بغداد — الهزاعه عند حيت ووفاته — مبايعة بيبرس للإمام أبي العباس أحمد بالخلافة — إضعافه نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله .

(٢) سياسة بيبرس الخارجية :

(١) موقف بيبرس إزاء الصليبيين :

٧٤

رغبة بيبرس في إحياء الامبراطورية الاسلامية — مناوئته للامارات
اللاتينية — مخالفته الدول المحيطة به — نقض الصليبيين للعهد —
قيسارية — أرسوف — صفد — محاولة بيبرس الهجوم على عكا —
مهادنة بيبرس لأمية بيروت والاستتار بحصن الأكراد — هجومه على يافا —
استيلائه على الشقيف أرنون — فتح أنطاكية — رغبة إمارة طرابلس وعكا
في موادة بيبرس — استيلاء بيبرس على حصن الأكراد — استيلائه على
حصن عكا — شروع بيبرس في مهاجمة طرابلس — عقده الصلح مع
طرابلس — مهاجمة بيبرس لحصن القرين — تلميته طلبات الصلح مع عكا
وصور — أسباب هزيمة الصليبيين .

(ب) غزو جزيرة قبرس :

٩٦

أسباب غزو بيبرس لقبرس — مسير أسطول بيبرس لمحاربته — تحطيم
الأسطول — انقراض أهل قبرس على المسلمين .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ طائفة الاسماعيلية ببلاد الشام :

٩٨

انحياز الاسماعيلية الى الصليبيين — قدوم رسل الاسماعيلية الى السلطان —
دخول نجم الدين الشعماني في طاعة بيبرس — استيلاء بيبرس على حصون
الاسماعيلية .

(د) علاقة بيبرس بالمغول :

١٠٠

(١) مغول فارس :

تحالف التار مع الصليبيين — إغارة التار على البيرة — وفاة هولاكو
وتولية ابنه أباقا — اتفاق التار مع الصليبيين على الإغارة على بلاد
الشام — إغارة التار على عين تاب — معاودة التار الهجوم على
البيرة — مسير بيبرس الى الفرات — انتصاره على التار — اتفاق
البرواناه مع الملك الظاهر بيبرس على القدوم الى بلاد السلاجقة
الروم — شروع بيبرس في الاستيلاء على بلاد السلاجقة الروم —
هزيمة التار والروم — جلوس بيبرس على عرش سلاطين قيسارية —
مقتل البرواناه — أسباب تقاعد بيبرس عن محاربة التار .

صفحة

١٠٩

(٢) مغول القفجاق :

مخافة بيبرس لبركة خان — قدوم بعض التتار إلى مصر واعترافهم
الدين الاسلامي — تبادل الرسل بين بركة وبيبرس — وفاة
بركة — اعتلاء منكوتمر عرش مغول القفجاق — اتفاقه مع بيبرس
على مناوأة بيت هولاكو .

١١٤

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية :

قدوم هيتوم إلى عين تاب — سير جيش بيبرس إلى سيس — أسر ليفون —
هيتوم يطلب الصلح — اطلاق سراح سنقر الأشقر — عودة ليفون إلى
والده — بيبرس يعاود محاربة الأرمن لتقضيهم العهد .

١١٧

(و) علاقة بيبرس بملوك أوروبا :

تحالف بيبرس مع امبراطور القسطنطينية — تبادل الرسل والهدايا مع منفرد
ملك صقلية وتسكانيا — توثيق عرى الصداقة بينه وبين شارل صاحب
النجو — تبادل الهدايا بين بيبرس وأمير أشبيلية .

١١٩

(ز) اتساع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة :

امتناع بلاد النوبة عن دفع الجزية لبيبرس — مساعدة بيبرس لشكندة على
استرداد ملكه من ابن أخيه داود — هزيمة داود — تعهدات شكندة لبيبرس .

١٢٢

(ح) ازدياد سلطة بيبرس في الأماكن المقدسة بالحجاز .

١٢٣

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشي الحبشة وبيبرس .

الباب الرابع — حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس

١٢٧

(١) النظام السياسي والاداري :

اهتمام بيبرس بشئون مصر الداخلية — نظام الحكم في عصر بيبرس — حصر وراثه
العرش في أسرته — تولية الملك السعيد عهد السلطنة — كراهية المماليك لنظام وراثه
العرش — أثر ذلك في نزول الملك السعيد عن العرش — انتقال السلطة من بيت
بيبرس إلى بيت قلاوون — استعانة بيبرس بالأمرء المقربين له في إدارة شئون
الدولة — نائب السلطان — الوزير — ناظر الدولة — ناظر الخاصة —
الحاجب — الاستنادار — الدوادار — الأمير جاندار — ولاية الأقاليم —
صاحب العسس — ديوان الانشاء — البريد .

(٢) القضاء :

دار العدل — تفويض قضاء مصر لتاج الدين بن بنت الأعز — تعيين بيبس أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة .

(٣) الجيش والبحرية :

الجيش في عهد الملك الصالح — جزيرة الروضة واهتمام بيبس بعمارها — استئجار بيبس من شراء المماليك — عنايته بتربيتهم تربية دينية عسكرية — طبقات الجند — أزيائهم — مرتباتهم — اهتمام بيبس بإنشاء دور صناعة السفن — تقدم مصر في ميدان الصناعة الحربية والبحرية .

(٤) الحضارة المادية :

عناية بيبس بالزراعة — حفر الترع وتطهير الخلجان — ازدياد محصولات مصر — عناية بيبس بغرس البساتين — ترقية مراكز الصناعة — الآلات الحربية — المنسوجات الصوفية — صناعة الفرش والبنمط — صناعة السكر — مهارة الصناع المصريين — تقدم التجارة في عصر بيبس — عقد المعاهدات التجارية — ازدياد تجارة مصر الخارجية — التجارة الداخلية — أسواق القاهرة — موارد الدولة المالية .

(٥) منشآت بيبس :

المدرسة الظاهرية — الجامع الظاهري — إصلاح الجامع الأزهر — قناطر السباع — إصلاح منارقي الاسكندرية ورشيد — قرية الظاهرية — إصلاح الحرم النبوي — فن العمارة في عصر بيبس .

(٦) الحياة العلمية والأدبية :

عناية بيبس بنشر العلوم الإسلامية — العلماء والأدباء في عصر بيبس . (محيي الدين ابن عبد الظاهر — ابن خلكان — ابن واصل) — التراث الفني — النظم — الشعراء في عصر بيبس .

(٧) الحالة الاجتماعية :

عناصر السكان بمصر — موقف المماليك إزاء المصريين — جالية النصارى بمصر — الفرنجة — حرص بيبس على نشر الفضيلة .

خاتمة القول في بيبس

نجاح بيبس في إعلاء شأن مصر — اكتسابه محبة الأهلين — شجاعته — عدله — تحفيظه أعباء الحياة عن شعبه — ما يأخذه المؤرخون على بيبس — وفاته .

بحث في مصادر الكتاب

تمتاز المراجع المخطوطة التي اعتمدت عليها في كتابي هذا بأن مؤلفيها عاشوا في عصر المماليك وأدرك بعضهم عهد بيبرس نفسه كما أن بعضهم تولى بعض الأعمال الإدارية في مصر في عهده وفي عهد من خلفه من سلاطين المماليك ولذلك فإنها تعد من هذه الناحية ذات أهمية تاريخية في دراسة عصر الظاهر بيبرس .

ومن المؤرخين الذين عاشوا في أيام الملك الظاهر : جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) مؤلف كتاب "مفترج الكروب في أخبار بني أيوب" وهو مخطوط بدار الكتب الملكية ويعتمد عليه في دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وصدر دولة المماليك بمصر . وقد اعتمدت عليه في استقصاء تفاصيل حياة بيبرس الأولى وما قام في وجهه من الصعاب على أثر توليته سلطنة مصر . فهو من هذه الناحية يوضح السبب الذي من أجله غدر بيبرس بالملك المغيث صاحب الكرك الذي خرج عن طاعة بيبرس على أثر توليته سلطنة مصر . ويمتدنا هذا المرجع أيضا بمعلومات لها قيمتها التاريخية فيما يختص بعلاقة بيبرس بجزيرة صقلية . ويؤخذ مما جاء بهذا المرجع بصدد هذه المسألة أن مؤلفه ذهب الى جزيرة صقلية سنة ٦٦١ هـ رسولا من قبل الملك الظاهر يحمل هدية الى ملكها وأنه انقطع عن الكتابة منذ هذه السنة وواصل تلميذه الكاتب كتابته الى سنة ٦٨٠ هـ ملخصا عن كتاب آخر اسمه التاريخ لا يعرف اسم مؤلفه .

أما بيبرس الدوادار المتوفى سنة ٧٢٥ هـ صاحب كتاب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" وهو مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية فقد تولى بعض المناصب الإدارية في عهد السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد . قلده قلاوون ولاية الكرك ثم عزله

ابنه الأشرف خليل . وعندما تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر سنة ٦٩٣ هـ عينه رئيسا لديوان الانشاء ولقب منذ ذلك الوقت بالدوادار^(١) وأخذ يترقى في مناصب الدولة حتى عين نائبا للسلطان سنة ٧١١ هـ . ومن ذلك نرى أن هذا المؤلف كان يكتب عما شاهده في مصر في ذلك العصر . فكتاباه يعتبر من المراجع الهامة في دراسة التاريخ السياسى في عهد الظاهر بيبرس وعهد من خلفه من السلاطين إلى أوائل عهد الناصر محمد بن قلاوون . وقد اعتمدت على هذا المرجع في دراسة موقف بيبرس إزاء الصليبيين وعلاقته بمغول فارس وكيف استطاع الملك الظاهر أن يقضى على نفوذ المغول ويوقع بهم الهزيمة بعد أن انضم إليهم سلاجقة آسيا الصغرى سنة ٦٧٥ هـ .

يأتى بعد ذلك الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٣٦ هـ صاحب كتاب "الذيل على مرآة الزمان" وهذا المرجع مخطوط بدار الكتب الملكية وقد ضاع جل نثائه . ولم يبق منه إلا الجزءان الخامس عشر والسابع عشر . وهذا الجزء الأخير هو الذى نمدت عليه فى كتابى . وقد عثر عليه رجال دار الآثار العربية مدفونا بجامع قايتباى ذلك سنة ١٨٨٢ م . وربما كان هذا هو السبب فى ضياع بعض أوراقه وتمزيق البعض الآخر . وعلى الرغم من الصعوبة التى لاقيتها فى قراءة هذا الكتاب فإننى تنطعت أن أستفيد منه بعض الفائدة وخاصة فيما يتعلق بنشأة بيبرس . فقد أمدنا هذا الكتاب برواية فى هذا الصدد أشرت إليها فى كتابى وهى تخالف ما ذكره كل من ابن واصل والمقرئزى عن نشأة بيبرس كما أفاض القول فى وفاة بيبرس وأسبابها وما قام به من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره .

ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها أيضا كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م)

(١) الدوادار : هو الكاتب . وهذا اللفظ مأخوذ من الدواة فكأن معناه صاحب الدواة .

فأجزاء الثامن والعشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية والذي لم يتم طبعه بعد يمدنا بمعلومات هامة عن سياسة بيبرس الخارجية وخاصة فيما يتعلق بحروبه مع الصليبيين والمغول وموقفه إزاء طائفة الإسماعيلية ببلاد الشام . وقد اعتمدت على هذا المخطوط في بحث موضوع إحياء الخلافة العباسية بمصر وعلاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وما أدخله بيبرس من التعديلات على نظام القضاء بمصر .

ومن بين الكتب الخطية التي اعتمدت عليها أيضا كتاب "رفع الإصر عن قضاة مصر" لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقد أعانني على معالجة أحد مواضع كتابي وهو نظام القضاء في عصر بيبرس .

وهناك مرجع آخر اعتمدت عليه في بحث سياسة بيبرس الخارجية وهو عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ . فأجزاء العشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية يمدنا بكثير من المعلومات عن علاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وأسباب غزو بيبرس لجزيرة قبرس . ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤلف هذا الكتاب كثيرا ما ينقل عن بيبرس الدوا دار صاحب كتاب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" .

كذلك اعتمدت على الجزء الثالث من كتاب "النجوم الزاهرة" لأبي المحاسن ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٥٤ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقد أخذت دار الكتب في نشره وانتهت منه إلى أواخر عصر الدولة الأيوبية . وقد أمدني بكثير من المعلومات عن نشأة بيبرس الأولى والأدوار التي مر بها قبل دخوله في حوزة الملك الصالح . وهو يروي لنا رواية عن نشأة بيبرس تشبه تمام الشبه ما ذكره اليوناني عن نشأته . كذلك يمدنا هذا الكتاب بمعلومات مستفيضة عن كيفية اعتلاء بيبرس سلطنة مصر ومبايعته للخليفة العباسي ومحاربتة للصليبيين

والمغول وعن منشأاته وما أدخله بيبرس من التعديل على نظام القضاء المصرى وما الى ذلك مما قام به من الأعمال الداخلية والخارجية . وكثيرا ما ينقل مؤلف هذا الكتاب عبارات بومتها عن كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " لتقى الدين المقرئى .

وهناك أيضا كتاب آخر له أهمية خاصة فى دراسة الحياة الأدبية فى عصر الظاهر بيبرس وهو كتاب " عيون التواريخ " لابن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) المخطوط بدار الكتب الملكية . فالجزء الحادى والعشرون من هذا المرجع يمدنا بكثير من المعلومات عن هذه الحياة ويذكر لنا كثيرا من الشعراء الذين عاشوا فى ذلك العصر وما قرضوه من الشعر . وعلى الرغم من أن هذا المرجع يحوى الكثير من الأشعار التى نظمت فى عصر بيبرس إلا أنه يصعب على القارئ قرائتها لضيق كثير من كلماتها ، وفضلا عن ذلك فإن هذا الكتاب يمدنا بمعلومات وافية عن الحروب التى وقعت بين بيبرس والصليبيين ومغول فارس وعن ازدياد نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة .

ومن المصادر التى تناولت الكلام عن صفات بيبرس وأصلاحاته وحروبه مع الصليبيين والمغول كتاب " المناقب السرية المنترمة من السيرة الظاهرية " مؤلفه شافعى بن على بن عباس . وهو مختصر قصيدة نظمها أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر فى مدح الظاهر بيبرس . وكان ابن عبد الظاهر قد طاب منه أن يختصرها وينثرها . وفى ذلك يقول ابن عباس ^(١) " وكان كاتب سره البليغ محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن شيخ الاسلام رشيد الدين عبد الظاهر قد افتتح أيامه بنظم سيره رتل منها سور محاسنه صورة صورة وأرخ وقايعة (كذا فى الأصل) التى هى فى صحايف (كذا فى الأصل) حسناته مسطورة فأطال وأطاب وخطب بأمتع خطاب وأتى على مجموع أيامه يوما يوما ... لكن اقتضى الحال أن يثبت منها الفث والسمين وأن

(١) المناقب السرية المنترمة من السيرة الظاهرية ورقة ٤١ .

يكرر ما يشافه به سماع سلطانه من اطراء وإن كان فيه صادق لا يمين . وكان رحمه الله قد تحدث معي في اختصارها فلم يتفق في حياته ولم يقع تأديبا معه في اثبات لقبه ونفى إثباته . وقد اختصرتها رغبة في الإيجاز الذي هو عين البلاغة وعذوبة مياه الفصاحة المسافة وذكرت منها الأهم المقدم لتلد مطالعتها وتروق مراجعتها وبالله التوفيق .

وهناك مراجع أخرى مطبوعة اعتمدت عليها في استقصاء سياسة الملك الظاهر الخارجية . ومن أهمها : "كتاب النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد" لمفضل ابن أبي الفضائل الذي لا تعرف سنة وفاته وكل ما نعرفه عنه أنه انتهى من كتابه سنة ٧٣٥ هـ . وتختصر أهمية هذا الكتاب في أن مؤلفه عاش في مصر في عصر الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١ هـ) واعتمد على كثير من المراجع الهامة المعاصرة التي لا تزال مخطوطة الى الآن . نخص بالذكر منها كتاب "السيرة الظاهرية" لمحبي الدين بن عبد الظاهر و "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" لبيرس الدوادار و "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري . وعلى الرغم من أن مفضل بن أبي الفضائل كان مسيحي المذهب فانه اتبع في تأليفه الخطة التي سار عليها المؤرخون من المسلمين فبدأ كتابه بالبسملة وأرخ الحوادث بالسنين الهجرية . وقد أمدني هذا الكتاب بحقائق تاريخية عن اتساع نفوذ بيرس ببلاد النوبة وعن المراسلات التي تبودلت بينه وبين نجاشي الحبشة وبه فوق ذلك كثير من المعلومات الهامة عن سياسة بيرس إزاء الصليبيين والمغول .

كذلك اعتمدت على كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" لتقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) عند بحث حالة مصر قبيل اعتلاء بيرس عرش السلطنة بها ، وسياسته الخارجية مع الصليبيين والمغول ، وعلاقته بالملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له ، وما قام به من الاصلاحات . والمقريزي في كل هذه الموضوعات يمدنا بكثير من المعلومات القيمة . ومما يلاحظ عليه أنه ينقل كثيرا عن النويري فيما يتعلق بكلامه عن الأيوبيين والمماليك .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه وهو كتاب "المختصر في أخبار البشر" لأبى الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) . وقد أمدنى بمعلومات هامة عن الأمراء الذين خرجوا عن طاعة بيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر، كما أعاننى على بحث مسألة إحياء الخلافة العباسية بمصر . هذا وغير خاف ما لغير ما ذكرنا من الكتب من جليل الفائدة لهذا البحث مثل كتاب "العبر وديوان المبتدا والخبر" لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) . وتاريخ الخلفاء للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) . و "بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) .

ومن أهم المصادر وأمتعها في بحث النظم الادارية والمالية في عصر بيبرس كتاب "صبح الأعشى في صناعة الانشا" لأبى العباس أحمد القلقشندى ، وكذلك كتاب "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" للقريزى ، و "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" للسيوطى . فبعدنا السفر الأول بكثير من المعلومات عن ديوان الانشاء . وقد أفرد القلقشندى الجزئين الأول والثانى من كتابه في التعريف بهذا الديوان وفي بحث نشأته في الإسلام الى زمنه ، كما يمدنا بمعلومات هامة عن الوظائف والموظفين في ذلك العصر وعن الطبقات التى كان يتكوّن منها الجيش وعن نظام البريد والقضاء وما أحاط سلاطين المماليك من أبهة وجلال . أما كتاب الخطط للقريزى فقد اعتمدت عليه في وصف منشآت بيبرس والأسواق التجارية التى ت في عصره كما ساعدنى على بحث النظام الإدارى في عصره والوظائف الهامة أنشأها . كذلك يمدنا السيوطى ببعض المعلومات عن الموظفين في ذلك العصر ومهمة كل منهم وعن القضاة الذين تولوا قضاء مصر في عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك .

وهناك كتاب تنهافت على قراءته العامة وبعض الخاصة ويعرف بالسيرة الظاهرية ويقع في ثلاثين جزءا . وكنت أظن أنه يحوى شيئا ذا غناء في سيرة هذا

البطل العظيم ولكنى تصفحته فاذا هو يحوى طائفة من الخرافات والأخبار المشوهة التى لا يصح أن يعتمد عليها الباحث الحديث، لذلك أهملتها واكتفيت بالمراجع الموثوق بها .

ومن المصادر الافرنجية التى اعتمدت عليها كتاب :

Sir William Muir, "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt" وقد أمدنى بعض المعلومات عن سياسة بيبرس إزاء الصليبيين والمغول، وعن رغبة بيبرس فى حصر وراثته العرش فى أسرته وما ترتب على ذلك من الحوادث .

وهناك كتب أخرى اعتمدت عليها فى بحث موقف بيبرس إزاء الصليبيين وهى: كتاب "The crusaders in the East" Stevenson, وكتاب Barker, "The crusades" وكتاب : King, "The Knights Hospitallers in the Holy Land" . وهذه الكتب لم تفصل القول فيما قام به بيبرس من الأعمال الجلية ببلاد الشام للقضاء على نفوذ الصليبيين .

كذلك اعتمدت على الترجمة الانجليزية لمذكرات جواتثيل عن حملة لويس التاسع على مصر : "Memoirs of the crusades" by Villehardouin & Joinville, translated by Sir Frank Marzials. Davies و كتابه : "Invasion of Egypt in A.D. 1249 by Louis IX of France" و Stanley Lane-Poole فى كتابه : "A History of Egypt in the Middle Ages". عن هذه الحملة أيضا . وعلى الرغم من أن جواتثيل قدم الى مصر مع لويس التاسع وشاهد المعارك التى وقعت بين المصريين والصليبيين فإنه لم يمدنا بمعلومات ذات غناء عن نصيب بيبرس فى صد هذه الحملة وكذلك ديفز (Davies) الذى اعتمد على ما كتبه جواتثيل فى مذكراته لا يمدنا بمعلومات هامة فى هذا الموضوع . أما (Stanley Lane-Poole) فقد وضع لنا فضل بيبرس وفرة الممالك

في صدد حملة لويس التاسع عن مصر ، كما تكلم عن علاقة بيبرس بملوك أوروبا وما عقده معهم من المحالفات والمعاهدات التجارية .

ومن الكتب التي اعتمدت عليها في دراسة علاقة بيبرس بالمغول كتاب Browne, "Literary History of Persia" ، فهذا المرجع يمدنا بكثير من المعلومات عن سقوط بغداد على يد هولاكو وما ترتب على ذلك من القضاء على الخلافة العباسية ، وعن الدور الذي قام به بيبرس في صدد جند هولاكو المغولية في موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) قبل اعتلائه سلطنة مصر ، كما يوضح لنا أيضا ما كان بين بيبرس ومغول فارس من العداء وما كان من تغلبه عليهم في موقعة قيسارية سنة ١٢٧٧ م .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه في بحث علاقة بيبرس بالمغول الذين يقطنون ببلاد القفجاق وهو كتاب : Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam : وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات هامة عن كيفية انتشار الاسلام بين أهالي القبيلة الذهبية ببلاد القفجاق وما ترتب على ذلك من قدوم كثير من المغول الى مصر واعتناقهم الاسلام بها .

ومن الكتب المتمعة التي اعتمدت عليها في بحث حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس كتاب : Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age وقد أعانني هذا الكتاب على بحث تجارة مصر الخارجية في عصر الظاهر بيبرس والمعاهدات التجارية التي عقدها الملك الظاهر مع ملوك أوروبا وبعض الأمراء الشرقيين .